

مفهوم المعرفة فى الاسلام

الاستاذ الدكتور عبد الواحد هاليبوتا

مدير مجمع البحوث الاسلامية - اسلام آباد - باكستان

لا يمكن تحديد نظرية المعرفة فى الاسلام الا اذا اعتبرنا معناها من خلال لمئات من الآيات الواردة فى القرآن الكريم، و التى تشير الى المعرفة فى أكثر من سياق، وكذا من خلال أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وما قاله السلف الصالحون فى شأن المعرفة و هدفها و شروطها و مقاصدها فى عملية تطور الانسان الى شخص كامل ذى شخصية كاملة.

ان القرآن الكريم هو أكبر معين و مصدر للمعرفة الاساسية والعالمية على ضوئه تستطيع البشرية أن تنفذ الى آفاق ما وراء نوافذ العالم المحيط و الى المجالات الروحية من التجربة الانسانية أى الى الأنفس. ويشير الكثير من الآيات القرآنية الى عديد لا يحصى من ميادين الملاحظة والاكتشافات الممكنة ولقد تم اكتشاف البعض من هذه الميادين فى حين أن البعض الآخر لا يزال ينتظر ان يكون محل تفكر و تدبر عن طريق استخدام جوارح السمع والبصر والفؤاد.

ان الاسلام دين عالمى وشامل، وينتج عن تعاليمه تصور يشمل جميع جوانب الحياة الظاهرة وعلاقتها بالحقيقة. لذا لا تكتمل المعرفة للظواهر الا اذا تجلت فيها النظرة الكاملة والمنسقة لمجموع مشاكل الانسان، تلك النظرة التى هى متصلة بالظواهر العالمية فى مختلف جوانبها المادية والروحية والذهنية. ان المعرفة الجزئية هى عبارة عن قطع قوس من دائرة. فهى لا تنسجم مع النظرة

العالمية الشاملة التي هي نظرة المؤمن بالتوحيد، والسدى ينظر الى البشرية ككل واحد أى كانسان كبير حسب تعبير «شاه ولي الله»، والى العالم كله كشخص واحد كما يشير الى ذلك التعبير «الانسان الأكبر».

ان المعرفة هي احدى صفات الانسان الأساسية التي تتكون حولها ذاته وشخصيته، وأن مستوى ومكانة الفرد ترتفع بقدر ما يحصل عليه من المعرفة والوعى والادراك لحقائق الحياة وقد ورد فى القرآن: يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين آمنوا العلم درجات.

يعبر اكتساب المعرفة و تطويرها فى التعاليم الاسلامية حجر الزاوية الذى تبنى عليه الحضارة الاسلامية وطبيعة المجتمعات الاسلامية وأفرادها. ويعد اكتساب العلم من مميزات عهد الاسلام. ولذا كانت الفترة ما قبل نزول القرآن معروفة بالجاهلية، حيث ساد فيها الجهل والقساوة. ان القراءة والكتابة هما مصدر المعرفة والمفتاح الأساسى للحضارة الاسلامية ، وهذا ما يؤكد الأمر الأول الذى ورد فى القرآن الكريم ، أى «اقرأ...» كما أن هناك سورة من بين أولى سور القرآن الكريم معرفة بسورة القلم (ن والقلم). و تدعو هذه السورة كلها الى التحلى بالقراءة والكتابة، وما تبقى من القرآن الكريم انما هو مزيد من التوضيح لهذا الأمر، اذ يبين ما هو صالح للقراءة وكيفية قراءته.

وفى السورة الاولى التى انزلت من القرآن الكريم تشير بعض العبارات مثل: الرب، خلق ، وعلم، الى ان اكتساب العلم ينبغى ان يستهدف التربية وتنمية عقل الانسان بصورة مناسبة، ان العلم والتعليم يجب ان يؤدى الى اقامة رباط مع الرب الذى هو دائما مصدر التربية ومصدر الخلق وملهم الوعى وبفضل هذه العلاقة يؤدى نشاط اكتساب العلم والقراءة الى التربية والى تنمية القدرة الابداعية وادراك الانسان لكونه عبدا ضعيفا خلقه الله تعالى ولولا فضل الله ونعمته عليه لما كانت له حياة ولا معيشة ولا تطور وان العلم الذى يكتسب عن غير وعى بالله والعلاقة

الاساسية مع مصدر الحياة الاسمى يودى الى تنمية غير متوازنة للذات. يمكن ان يحصل المرء على مهارات جسيمة فى استخدام بعض الآلات الميكانيكية الا ان تنمية الانسان لذاته تبقى متجمدة ويصيبها انحلال فى بعض الحالات اذا تم الحصول على المعرفة بصورة منفصلة عن العلاقة بالرب خالق الكون.

وعند متابعة هذه الوصية فاننا نجد كل سور القرآن الكريم ، تبتدىء بالبسملة (ماعدا سورة واحدة) وأصبح من تقاليد المسلمين ان يشرعوا فى عملهم بذكر اسم الله وكل كتاب و كتابة تبدأ بالبسملة والحمد لله سواء كانت دينية او علمية، كىماوية، فيزيائية، هندسية، تبدأ بالبسملة والحمد لله باعتبار ان ذلك العمل الهام لا يكون مضمرا الا اذا بدىء به بالبسملة والحمد لله.

ومن الغريب ان نجد اليوم ملايين من الكتب فى الملتقيات وآلاف المؤلفات تكتب سنويا دون ان تبتدىء بكلمة باسم الله، وكنتيجه لهذا فان كل فرع من فروع المعرفة التى تودى الى تنوير أصيل لفكر القلب تتوقف ظاهريا على الاشعاع الداخلى الذى هو الرؤية الداخلية للانسان والتى يمكن ان تتوسع بفضل المعرفة.

تكتسب المعرفة بدراسة الشعور بالله والظواهر التى تستحق الدراسة الى جانب الحمد من المتجولين للعالم الذى خلقه الله، والتى تعد من اعظم خصال الانسان التى اذا ما يحظى بها اصبح قريبا من خالقه.

ان صفة المعرفة، واتباعه للطريقة الصوفية التى تدعو الى التخلق بخلق الله، فانه يرتفع بمكانته كإنسان ان المعرفة التى تكتسب حسب مضمون القرآن تضمن نورا وتطبيقها حكمة.

اصبح الدين الاسلامى دينا عالميا وافر نظرية لشمولية الحياة والواقع، وجعل منظار المعرفة يتسع اكثر ليشمل كل المظاهر الطبيعية مثل ما هو الامر بالنسبة لعلم الانسان الروحانى، ان طريقة وأسلوب تعليم القرآن والذين اصبحا مع

الزمن يعرفان بالطريقة الاستقرائية العلمية، ازالتم السديم للثروة المختفية لهذه الظاهرة.

وبعد الوحي للنور والكتاب المبين وايضا بعد نزول القرآن الكريم اختفى ظلام الجاهلية والاسرار الخرافية ونوع الصوفية السائدة قبل الاسلام وتفشى كل سر يخص حياة الانسان ، فالارض مضاءة بنور الله كما يقول القرآن الكريم: «جاء الحق وزهق الباطل».

ان الطريقة الاسلامية للتربية واكتساب المعرفة ونقلها شملت كل انواع المعرفة او بطريقة اخرى المعرفة الموجودة فى العالم . فالاسلام دين متمم جاء ليقضى على الانقسامات، الاسلام يجعل التعليم اجباريا لكل المستويات ، والطبقات المنغلقة على نفسها والجنسين، الذكور والاناث.

فالتربية الاسلامية هى تلك التعليمات التى ظهرت فى الفترة الاولى فى عهد القرآن ، وأى شىء آخر هو مضر لهذا التقدم فيه هذه المرحلة غير اسلامى، كما ان كل ما يبطل ما يهدف اليه القرآن لتحقيق حاجيات الانسان بعد تربية غير صالحة ، فالتربية الفاسدة ، ليست تربية اسلامية ، هى تلك التربية التى تؤدى بالانسان من النور الى الظلمات.

ان نظام الاسلام فى التعليم واكتساب المعرفة لكل المواضيع الهامة فالعلم والصناعة لهما مكانتها الهامة مثل ما للعلوم الانسانية وانه من الخطأ التصور بان العلوم الانسانية لا تساهم فى تقدمنا المادى ورفاهيتنا الاقتصادية، بل ان العلوم الاساسية تعد وسيلة فى تقدمنا اكثر من العلوم فى ايجاد نظرة التوازن الشاملة التى تعد ضرورية لتقدم الانسانية والتناسق فيما بين الثقافات البشرية. فالفلسفة ، الدين، التاريخ، والأدب، هى تلك العلوم التى تجرى محاولة لدمجها و تركيب نتائج البحوث لهذه العلوم مثل الفيزياء ،

الجيولوجيا ، والاحياء علم الفلك، والاقتصاد والسياسة وهذا هو المرغوب من

التعليم الجامعى . ان مصطلح الجامعة استعمل من قبل المسلمين اولا .
 فالعلوم مصنفة الى خمسة انواع فى القرآن الكريم كما اشار اليها شاه
 ولى الله حيث تشمل كل ميادين المعرفة وتلبى جميع حاجيات الانسان فى مواقفه
 الروحية المستلهمه من تعليم القرآن . وحيث يمكن للطلبة الدارسين لعلوم الفيزياء
 والكيمياء ان يرفعوا من مستواهم الروحى فان يواصلوا دراستهم حسب تعاليم القرآن
 الكريم وذلك لموجب الآيات المؤدية الى التفكير والتدبر والمؤدية كذلك الى
 العلاقة با لخالق ومخلوقة، و انطلاقا من هذا المبدأ فان المسجد لا يعتبر فقط مكان
 عبادة، بل يعتبر ايضا المخبر الذى يعد مكانا للعبادة هنا فى المسجد حيث يمكن
 للمسلم الواعى بالله من دراسة عجائب الكون، التى تثير مشاعر الحمد والتسبيح
 فى قلب المتأمل فى المخبر.

فالمعرفة العامة هى احدى المقومات الاساسية للطريقة المعروفة بالتدبر
 العلمى وان الحجب التى وضعت بين الانسان والحقيقة قد ازيلت. فهذه المعرفة
 تؤدى بالانسان الى حالة السعادة نعمة وسعادة الانسان) والذى يعتبر الهدف الاخير
 لكل تعليم الدين. فقد صنف الامام الغزالى المعرفة على أساس أهميتها، وهناك
 نوع من المعرفة ما يسمى فرض عين ونوع آخر من المعرفة يسمى بفرض كفاية
 وكل هذه التقسيمات ينظر اليها من حيث اهميتها لنوع المعرفة
 لحاجيات الانسان الاساسية لحياة الأنسان فى جوهرها وعلاقتها بنعمة وسعادة
 الانسان فى الحياة الدنيا والآخرة ان معرفة مختلف العلوم الطبيعية هى بلاشك تعد
 من العوامل الاساسية فى تطوير الانسان فكريا وذهنيا. وبالتالي سمح بتنمية ذاته
 روحيا.

يعتبر الامام الغزالى ان دراسة علم الاحياء وعلم التشريح وسيلة لمعرفة الله.

وقد بعث النظره الاسلاميه للعلم تحت توجيه القرآن وسيرة الرسول ﷺ

عددا كبيرا من القيم وسيرة عملية نوعية يترابط مع العلم وسن التعليم وفى سيرة

الرسول ﷺ نجد جانبا كبيرا يهتم باقتناء العلم وتعليمه للاخرين. ويعتبر اعتراف العلم وتعليمه للغير بمثابة حسنة دائمة ويعتبر عمل العالم أهم للتكوين الشخصى من عمل الزاهد الذى يكرس نفسه للطاعة الروحية ويلتزم بأداء العبادات والتورع لعدة ساعات فى الليل. ويعتبر اقتناء التعليم أمرا اساسيا وضرورية حتمية لكل من هو مسلم. وبنفس الطريقة كل من حصل على علم يجب عليهم ان يلقنه لغيره وبعبارة اخرى يكون مستعدا لاخذه من الغير ليس فى هذا العالم فحسب بل فى عالم الغد ايضا.

وفى نطاق اقتناء العلم وتعليمه للاخرين ورصانة الهدف وروح الخدمة غير الانانية والروح الحقيقية للطلب والحق والاستقامة نلاحظ انه تم للاحاح على كل هذه الامور فى عدة احاديث للرسول ﷺ وفى المجتمع الاسلامى يجب ان يكون كل معلم مثالا حيا لجميع هذه القيم فالى جانب الفهم الفكرى المجرد للافكار الاحصائى وممارسة ما وجد عن طريق العمل فالعلم بلا عمل يعتبر غير مجد وهو علم غير نافع والوصول الى تطبيقه بعد من اكبر القيم.

فالهدف الاساسى من وراء كل عمليات التدريب والتعليم هو تقديم مساعدة وعون الى الافراد البشرية فى اتجاه بلوغ حالة السعادة الحقيقية التى تتمثل فى النمو المنسجم على الطرق الطبيعية وهذا يعنى انه يجب على الانسان ان ينمى فى ذاته وفى شخصيته وفى كل مواهبه وفى كل جوانب كيانه الملازمة له سواء أكانت منتمية الى الوجهة الفزيائية ام الوجهة البيولوجية الفزيائية او الروحية لكيانه وذلك للتقدم على سبيل سعاده الحقيقية وعليه فان القيم التى تلح على تنمية الوجهة الفزيائية للفرد يجب ان تكون كل هذه الامور ثابتة فى نظام التعليم لامتنا ، وللثقافة الفزيائية والتعليم الفزيائى اهمية متفاوتة فى نمو الفرد ولا يجب جهلها.

غير انه يعتبر نمو الا وجه النفسية العميقة والقدرات الروحية هدفا اخيرا

للتعليم القائم الطرق الاسلامية للتعليم. وبدون تأكيد على هذه الالوجه السامية للانسان لا يمكن ايجاد تنمية منسجمة، والتعليم الخالي من الالجاح على هذه الالوجه سيؤدى لا محالة الى تكوين افراد تنقصهم الصفات الحميدة الانسانية ، فالهدف من وراء نظام صحيح للتعليم يجب ان يحول الافراد الى اناس يتسمون باخلاق أصلية انسانية، كما يجب ان يحسن اوضاعهم و يرقمهم مستوى عاليا. وعن طريق هذا التحليل ، نلاحظ ان الوجهة النفسية العميقة للفرد تؤدى وظيفتين منفصلتين.

تعتبر هذه الوظائف فكرية وعاطفية، وينبغى المحافظة على هذه القيم وصيانتها جعلها موضوعية بالنسبة لأنظمة التعليم فى مجتمعنا وهى القيم المؤدية الى تنمية الوظيفة الفكرية والوجدانية و تنظيمها بالنسبة للاحكام القرآنية المتعلقة باستعمال السمع والبصر استخدام القلب فهى تعتبر قيما هامة. وحسب القرآن فان التدبر فى الآيات والنقاط الهامة فى الحياة وفى الافاق حول النفس وداخلها يعتبر من القيم الاساسية ويؤدى هذا الى تنمية الفكر.والى جانب ذلك يجب تلقين روح الاعجاب اثناء التدبر لروائع الخلق و ذلك لتنمية المظاهر الفكرية وارهاف الشعور والحس، ويساعد على ذلك الشعور بالحب والحنان لامثالنا من البشر ويؤدى التواضع والشعور النفسانى العميق بالتسجيل التى تنمية الوظائف العاطفية فى نفس الفرد. و تعتبر الظرافة والاذواق السليمة من القيم الهامة التى تساعد على الوصول الى النمو المنسجم ، ومع روح التساؤل والتدبر فى الكون المؤدى الى الاكتشافات العلمية والتقدم فى مجال العلوم الفزيائية تعتبر من العوامل المساعدة على فهم الظواهر الميتافيزيقية وهى ايضا قيم هامة لتزويد الفكر بنظرة منظمة ومناسبة الى الحياة - وتؤدى عالمية الهدف فى سيرة الانسان و كذلك نظرة واهداف وغايات سيرة الفرد الى تكوين الانسان على اسس مناسبة وطبيعيه. وبمرور الزمان يغدو روح الايمان بالتوحيد واقعا وتصبح جميع القيم المنبثقة عن

ذلك والقائمة على نظرة الوحدة، القوة السائدة لحفز الشخصية وتكوين الطبع لدى الفرد فيجب ان يحافظ نظام التعليم على القيم القائمة على الفكرة والعقيدة والنظرة الى التوحيد فى المقام و ذلك بغية ايجاد امة ذات اخوة عالمية متمسة بالوحدة و التضامن وروح الحرية و لتوسيع النظرة الضيقة للجنس واللون.

وينبغى الا يهدف التعليم الى المقومات المؤدية الى تلقين القيم المألوفة والاخلاق الحميدة الانسانية والتطور الفكرى والتقدم العلمى فحسب بل يجب ايضا ان يوفر بشكل منظم الوسائل ويتبنى الطرق التى تساعد على استئصال كل العوائق التى تعترض سبيل النمو الطبيعى والتطور، وتنجم هذه العوائق عن نزوات الطبيعة الفزيولوجية والبيولوجية او ترجع الى العواطف السلبية المنبعثة من العمليات الميكانيكية او التى يتسبب فيها الشعور الضال بالحقيقة وكذلك التعاليم الخاطئة او السيئة ، يجب ان يلح التعليم على القيم التى من شأنها ان تساعد على قيام صفات اخلاقية سامية فى الانسان وكذلك المثل العليا للاسلام ومن بين هذه الاشياء وتعليم صفات الاله وأسماء الله الحسنى وبالتالي خلق شخصية قوية للانسان تجعله قادرا على اظهار الخصال الاصلية مثل العلم والقدرة على التدبر والاصالة والخلق الخ يجب ان يهدف نظام تعليمنا الى تكوين شخصية متزنة اتزاننا حسنا و منسجمة بشكل تكون فيه الآفاق مفتوحة امام الافراد الموهوبين والذين لهم مستوى عال من الوعى وخبرة عالية وهى من ميزات الذين بلغوا الحالة المعروفة بالاحسان او حالة الغبطة او السعادة البالغة التى يتمتع منها الفرد بالنور الربانى والوعى الاصيل به وكذلك الشعور الملازم بوجود الله والتجربة الرائعة المصاحبة لذلك.

العلم هو مصدر الطهارة والغبطة للفرد وللجماعة بصفة عامة، وتعتمد الحياة وتقدم المجتمع، على العلماء الصالحين. ويزول العلماء لدى انحلال المجتمع وموت العالم يؤدي الى امكانية فناء العالم وعندما يتصل العلماء من

المسؤوليات الملقاة على عاتقهم يصبحون سببا فى خراب الامة. وهناك حديث ،
يقول ان الناس على دين ملوكهم.
بئس العلماء الميالون الى الشر والايذاء وهم علماء السوء المنتمون الى
حزب الشيطان وهم مصدر السوء الذى تعاني منه الامة، اذن فمن واجب العلماء
المحافظة على مستوى سجيتهم وشخصيتهم وطهارة افكارهم وأنفسهم كما يجب
المحافظة على الاخلاص والرصانة فى ابتغاء الهدف يجب عليهم ان يكونوا قدوة
ومثلا يحتذى فى الطبع لانهم هم الذين تتجسد فيهم الاسوة الحسنة ، وان يعملوا
حسب المثل القائل: تخلقوا باخلاق الله.

★ ★ ★ ★ ★